الفَصْلُ الأوَّلُ

التعْريف بالنُّبُوة

ويشمل الآتي :

١ - تمهيد .
٢ - النبوَّةُ هبةٌ ربَّانيَّة .
٣ - الفرق بين النُّبُوةِ والمُلْكِ
٤ - ماهو النبيُّ ، وماهو الرسول ؟
٥ - الأنبياء صفوة البشر .
٦ - محمَّد سيِّدُ الأنبياء والمرسلين .
٧ - هل يجوز التفضيلُ بين الأنبياء ؟
٨ - لماذا كان الأنبياء بشرًا ؟
٩ - مهمة الرسل الكرام .
١٠ - وظائف الرسل صلوات الله عليهم .

تمهيد

ـ ١ ـ

لا بد قبل البدء في الحديث عن «النبوة والأنبياء» أن نوضِّح معنى النبوة، وأن نذكر ملامحها ومزاياها، وأن نبين صفات الأنبياء وخصائص الدعوة التي جاءوا بها، ليتبين لنا الأثر العظيم الذي تركه الأنبياء الكرام صلوات الله وسلامه عليهم، في المجتمعات التي ولدوا فيها، وبين الأمم الذين بعثوا إليهم، ومدى هذا التأثير في تغيير مفاهيم الأمم وعقائدهم التي نشأوا عليها، فقد انتقلوا بهم من الظلمات إلى النور، وأخرجوهم من الضلالة إلى الهدى، فكانت دعوة الأنبياء إنقاذاً للأمم من براثن الشرك والوثنية، وتطهيراً للمجتمع من أدران التحلل والفساد، والفوضى والاضطراب.. وفي ذلك يقول القرآن الكريم:

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1].

فقد أشارت هذه الآية الكريمة إلى أن الناس كانوا على الهدى وعلى دين الحق، ولكنهم اختلفوا وتنازعوا وأفسدوا في الأرض، وحادوا عن الطريق القويم، فبعث الله

---

(١) سورة البقرة: الآية (٢١٣).

تعالى لهم النبيين مبشرين ومنذرين. . «روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كانوا على الحق حتى اختلفوا فبعث الله إليهم نوحاً والنبيين من بعده».

وأوضح الباري جل وعلا الغاية من بعثه الرسل الكرام فقال وهو أصدق القائلين:

﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[1].

كما جعل كل رسول منقذاً لقومه من ظلمات الجهل والضلالة فقال جلت عظمته:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[2].

* * *

(١) سورة النساء: الآية (١٦٤).

(٢) سورة إبراهيم عليه السلام: الآية (٥).

النبوّة هبة ربّانيّة

ـ ٢ ـ

النبوة فضل إلهي وهبة ربانية، يهبها الله لمن يشاء من عباده، ويختص لها من يريد من خلقه، وهي لا تُدرَك بالجد والتعب، ولا تنال بكثرة الطاعة والعبادة، وإنما هي بمحض الفضل الإلهي:

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[1].

فهي إذاً «اصطفاء واختيار» ولا تكون إلا لمن اختاره الله تبارك وتعالى لها، ممن هم أهل لحملها، لأنها حمل ثقيل، وتكليفٌ عظيم، لا يقدر عليه إلا أولو العزم من الرجال، كما قال تعالى مخاطباً خاتم الأنبياء والمرسلين:

﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[2].

والنبوة لا تكون بالوراثة، ولا تكون بطريق الغلبة والاستعلاء، إنما هي اختيار، يختار الله سبحانه وتعالى لها أفضل خلقه، وصفوة عباده، يختارهم لحمل الرسالة، ويصطفيهم من بين سائر البشر لهذا العمل الجليل كما وضح الباري جل وعلا ذلك في كتابه العزيز فقال تقدست أسماؤه:

---

(١) سورة آل عمران: الآية (٧٤).

(٢) سورة المزمّل: الآية (٥).

﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾[1].

وقال جلت عظمته:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[2].

وقال في معرض الحديث عن بعض الرسل:

﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾[3].

اعتراض المشركين على نبوة محمد:

وحين اعترض المشركون ــ من كفار قريش ــ على رسالة محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه واستغربوا أن تنزل «الرسالة» على يتيم فقير، لا يملك من أسباب القوة والغنى شيئاً، وليس له من مظاهر السلطان والملك ما يجعله في نظرهم عظيماً، وحين رأوا ــ بنظرهم القاصر ــ أن النبوة ينبغي أن تكون لغنيٍّ عظيم، شريف، من السادة والزعماء، من أشراف قريش وعظمائها، ومن سادتها ووجهائها، جاء الرد الإلهي الزاجر، فحكى الله سبحانه وتعالى شبهتهم، وردَّ عليهم بأسلوب مفحم قاصم فقال وهو أصدق القائلين:

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[4].

---

(١) سورة الحج: الآية (٧٥).
(٢) سورة آل عمران: الآية (٣٣).
(٣) سورة صٓ: الآية (٤٧).
(٤) سورة الزخرف: الآية (٣٢).

فالآية الكريمة ردت على المشركين سخفهم وحماقتهم حين زعموا أن النبوة لا تليق إلا برجل من الأغنياء ومن العظماء، لا بإنسان فقير يتيم كيتيم أبي طالب، وقد رد الله تعالى عليهم بأن النبوة اصطفاء واختيار، يختار الله لها من شاء من خلقه ﴿ اللَّهُ أعلمُ حيث يجعلُ رسالته﴾ وإذا كانت النبوة أعظم شأناً من المال والجاه، والسلطان، وكانت حكمة الله العلية قد حددت لكل إنسان رزقه، ولكل مخلوق حظه من المال والرزق، والمال بالنسبة للنبوة أمر حقير، فكيف يُتْرَكُ الأمر الجليل العظيم وهو «الرسالة والنبوة» إلى أهواء الناس ورغباتهم؟؟ فإذا لم يشأ الله تعالى أن يترك أمر الرزق لأهل الأرض بل قسم ووزع وحَدّد لكلٍ نصيبه فكيف يترك أمر النبوة إلى أهواء الناس؟ وهذا هو السر الدقيق، في التعبير بقوله جل وعلا:

﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾[1].

فالذي وهب الرزق هو الذي وهب النبوة.

* * *

(١) سورة الزخرف: الآية (٣٢) نفسها.

الفرق بين النُّبوةِ والمُلْكِ

ـ ٣ ـ

إن النبوة هبة من الله، واختصاص من العلي القدير، لمن شاء من خلقه، وهي تختلف عن الملك والسلطان في نقاط جوهرية، نذكر منها أهمها وهي:

أولاً: النبوة لا تكون بالإرثِ فولدُ النبي لا يكون نبياً بطريق الإرث عن أبيه، بل هي بمحض الفضل الإلهي، والاصطفاء الرباني ﴿ولقدِ اخْتَرْنَاهُم على عِلْمٍ على العَالمينَ﴾ ﴿إنَّ اللَّهَ اصْطفى آدم، ونوحاً، وآل إبراهيم، وآل عمران على العَالمينَ﴾.

ثانياً: النبوة لا تُعطى لكافر أبداً، ولا تعطى إلا للمؤمن، بخلاف السلطان والملك فقد يعطى لغير المؤمن، قال تعالى حكاية عن فرعون: ﴿ونادى فرعونُ في قومه قالَ: يا قوم أليس لي ملك مصر، وهذه الأنهارُ تجري من تحتي، أفلا تُبصرون؟﴾ وكما قال عن «النمروذ» الذي ادعى الألوهية في زمن إبراهيم الخليل: ﴿ألمْ تر إلى الذي حاجَّ إبراهيم في رَبّه أنْ آتاهُ الله الملك، إذ قال إبراهيمُ ربِّي الذي يُحيي ويُميتُ، قال أنا أحيي وأميتُ، قال إبراهيم فإنَّ الله يأتي بالشمس من المشرق فأتِ بها من المغرب؟ فبُهت الذي كفرَ والله لا يهدي القوم الظَّالمين﴾.

ثالثاً: النبوة خاصة بالرجال، ولا تكون للنساء أبداً[1]، والحكمة من تخصيص

---

(١) ما يقوله بعضهم: إن النبوة قد تكون في النساء، مستدلاً بقوله تعالى: ﴿وأوحَيْنَا إلى أم مُوسى أن أرْضِعيه...﴾ الآية. فإنه استدلالٌ خاطئ، لأن الوحي ليس بإنزال ملك، وإنما

الرجال بالنبوة دون النساء أن النبوة عبءٌ ثقيل، وتكليفٌ شاق، لا تتحمله طبيعة المرأة الضعيفة، لأنه يحتاج إلى مجاهدة ومصابرة، ولهذا كان جميع الرسل في محنة قاسية مع أقوامهم، وابتُلوا ابتلاء شديداً في سبيل تبليغ دعوة الله: ﴿فاصبرْ كما صبر أولو العزم من الرُّسل﴾، والدليل على أن النبوة خاصة بالرجال قوله تعالى:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

قال في الجوهرة:

«وما كانت نبياً قطُّ أُنثى ولا عبداً قبيحاً في الفعال»

رابعاً: النبوة لها ميدان واسع، وغرض نبيل، وهدف من أسمى الأهداف ودعوتها الأساسية، إنما هي الدعوة إلى (الإيمان بالله) والدعوة إلى (الإيمان بالآخرة) وإيثارها على الحياة الدنيا الفانية، التي يطمع فيها كثير من الناس ﴿وما الحياةُ الدنيا إلا متاعُ الغرور﴾ والملك يتعارض مع هذه الدعوة، لأنه مظهر من مظاهر العظمة الدنيوية التي جاء بالتزهيد عنها الرسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم.. فلو كان الأنبياء هم (الملوك) والأمراء والسلاطين، ثم دعوا الناس إلى الزهد في الدنيا، والتعلق بالآخرة لما كان لدعوتهم أيُّ وقع أو أثر في النفوس.. لأنهم يعيشون عيش الملوك ثم يزهدون الناس في هذه الحياة. والداعي إذا لم يكن بسيرته قدوة فلن يكون لكلامه أي تأثير.. وليس معنى هذا أنه يمتنع اجتماع (النبوة والملك) في إنسان، فقد يجتمعان في الشخص الواحد كما حصل لسيدنا

= هو بطريق (الإلهام) فقد أخبر تعالى بأنه أوحى إلى النحل: ﴿وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً...﴾ فهل يصح أن نقول: إن النحل قد نبّأه الله تعالى؟ كذلك هنا ﴿وأوحينا إلى أمِّ موسىٰ﴾ فإنه وحي إلهام، لا وحي نبوّة، فتدبّرْهُ واللّهُ يرعاك.

(١) سورة النحل: الآية (٤٣).

(سليمان بن داود) عليه السلام، ولكنه قليل ونادر، وقد ذكر ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[1].

* * *

(١) سورة ص: الآيات (٣٥ ـ ٣٩).

ماهو النبيُّ، وما هو الرسول؟

ـ ٤ ـ

النبي هو: إنسان من البشر أوحى الله تعالى إليه بشرع، .ولكنه لم يكلف بالتبليغ.

وأما الرسول فهو: إنسان من البشر، أوحى الله تعالى إليه بشرع، وأُمِرَ بتبليغه.

فالرسالة إذاً أعلى مرتبة من النبوة. . لأن كل رسول نبي، وليس كل نبي رسولاً، وعدد الأنبياء لا يحصى إذ يزيد عددهم ـ على ما جاء في بعض الآثار ـ مائة وعشرين ألفاً (١٢٠) ألفاً[٢]. . أما الرسل فهم قلة، والذين ذكروا في القرآن الكريم يجب الإيمان بهم تفصيلاً وهم (٢٥) خمسة وعشرون وكلهم من الرسل وهم كالآتي:

(آدم، نوح، إبراهيم، إسماعيل، إسحٰق، يعقوب، داود، سليمان، أيوب،

---

(٢) روى الإمام أحمد عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، أنه قال: قلت: يا رسول الله أيُّ الأنبياء كان أول؟ قال: آدم، قلت: يا رسول الله ونبي كان؟ قال: نعم، نبي مكلَّم، قلت يا رسول الله كم المرسلون؟ قال ثلاثمائة وبضعة عشر، جماً غفيراً. وفي رواية أبي أمامة قال أبو ذر قلت: يا رسول الله كم وفاء عدة الأنبياء؟ قال: مائة ألف وعشرون ألفاً، الرسل من ذلك ثلاثمئة وخمسة عشر جماً غفيراً» رواه أحمد في المسند ١٧٨/٥.

يوسف، موسى، هارون، زكريا، يحيى، إدريس، يونس، هود، شعيب، صالح، لوط، إلياس، إليسع، ذو الكفل، عيسى، محمد) صلوات الله عليهم أجمعين.

وهؤلاء يجب الإيمان بهم (تفصيلاً) بمعنى أنه يتعيَّن التصديق برسالتهم بأشخاصهم وأسمائهم، لأنهم ذكروا في القرآن الكريم، أما بقية الأنبياء فيجب الإيمان بهم (جملة) بمعنى أن نصدق بأن هناك أنبياء غير هؤلاء الذين ذكروا في الكتاب العزيز، لأن الله تبارك وتعالى قد أخبر عنهم بقوله:

﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾[1].

وقد جُمع هؤلاء الرسل في آية كريمة، ذكر منهم فيها (١٨) ثمانية عشر، والسبعة الباقون ذكروا في آيات متفرقة من كتاب الله الكريم. أما الآية الكريمة فهي قوله تعالى:

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۖ كُلًّا هَدَيْنَا ۖ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ ۖ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2].

وقد جُمع بقيةُ الرسل في بيتين من الشعر، تسهيلاً للحفظ، وهما:

«في تلكَ حُجَّتُنا منهم ثمانيةٌ ... من بعدِ عَشْرٍ، ويبقى سَبْعةٌ وهُمُوا»

«إدريسُ، هودٌ، شعيبٌ، صالحٌ وكذا ... ذو الكفل، آدمُ، بالمختار قد خُتِموا»

---

(١) سورة النساء: الآية (١٦٤).

(٢) سورة الأنعام: الآيات (٨٣ ــ ٨٧).

وأما الدليل على أن الرسل الكرام مأمورون بتبليغ الرسالة، وأنهم يختلفون عن الأنبياء في هذه النقطة بالذات، فهو النص القرآني الكريم وهو قوله تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾[1].

وقوله تعالى مخاطباً سيد الرسل:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[2].

* * *

(١) سورة الأحزاب: الآية (٣٩).

(٢) سورة المائدة: الآية (٦٧).

الأنبياء صفوة البشر

ـ ٥ ـ

اختار الله عز وجل من بين خلقه، فريقاً من البشر، ليكونوا نموذجاً للكمال، وعنواناً للفضل، وحملة لمشعل النور والضياء، وقادة لركب الحضارة الإنسانية، على مدى الأزمان وكر الدهور. واصطفاهم المولى ـ جلَّت حكمته ليكونوا هداة ومصلحين، فاختارهم على علمه، ورباهم على عينه، وشرفهم بأكمل الأوصاف، فجعلهم أئمة الدنيا والدين:

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾[1].

هؤلاء الصفوة المختارة من عباد الله هم «الأنبياء والمرسلون» الذين شرفهم الله بالنبوة، وأعطاهم الحكمة، ورزقهم قوة العقل، وسداد الرأي، واصطفاهم ليكونوا وسطاء بينه وبين خلقه، يبلغونهم أوامر الله عز وجل، ويحذرونهم غضبه وعقابه، ويرشدونهم إلى ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة.

فالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم هم خيرة الخلق، وصفوة البشر.. وهذا الإكرام لهم بالنبوة إنما هو بمحض الفضل الإلهي والحكمة الربّانية، ولا يمكن

---

(١) سورة الأنبياء: الآية (٧٣).

لأحد من البشر ـ مهما سما في سلّم الكمال ـ أن ينال مرتبة النبوة عن طريق الرياضة النفسية، أو الجهد في الطاعة والعبادة، فإن النبوة لا تنال بالكسب ولا تحصل بالعزم والمثابرة على فعل الخير والطاعة كما مرّ معنا، إنما هي هبةٌ من الله واصطفاءٌ واختيار ﴿اللَّهُ أعلمُ حيثُ يجعلُ رسالته﴾.

التفاضل بين الأنبياء:

وهؤلاء الأنبياء الأطهار ليسوا بدرجة واحدة من الفضل والمكانة، بل بعضهم أفضل من بعض، فقد جعلهم الله تعالى درجات، وفي ذلك يقول القرآن الكريم:

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[1]..

ويقول أيضاً:

﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾[2].

ومن الرسل الكرام من سماهم القرآن الكريم (أولي العزم) وهم قادة الأنبياء وسادتهم وقد ذكرهم الله تعالى بالثناء العاطر، وأمر رسوله ﷺ أن يقتدي بهم في جهادهم وصبرهم، فقال عز من قائل:

﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ...﴾[3] الآية.

وإنما سُموا (بأولي العزم) لأن عزائمهم كانت قوية، وابتلاءهم كان شديداً، وجهادهم كان شاقاً ومريراً.. فمنهم من صبر على البلاء والتكذيب القرون الطويلة، وتعاقبت عليه الأجيال العديدة، لأنه عمّر طويلاً، ولكن حياته كانت كلّها محناً وشدائد (كنوح) عليه السلام الذي لبث في قومه قريباً من ألف عام ولم يؤمن معه إلا قليل، وصدق الله حيث يقول:

---

(١) سورة البقرة: الآية (٢٥٣).
(٢) سورة الإسراء: الآية (٥٥).
(٣) سورة الأحقاف: الآية (٣٥).

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وما آمن معه إلا قليل﴾.

ومنهم من وصلت به الشدة والكربُ، ونال من قومه الشدائد والأهوال، إلى درجة أنهم حكموا عليه بالتحريق بالنار، كإبراهيم عليه السلام، خليل الرحمن، فقد كانت عقوبته في سبيل تبليغ دعوة الله الإحراقَ بالنار، ولكن الله عزّ وجل نجّاه فأمر النار أن تكون برداً وسلاماً عليه:

﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾[2].

وهكذا بقية أولي العزم كموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، كلهم أوذوا؛ واضطهدوا وشردّوا، فتحملوا الأذى والعذاب، وصبروا على البلاء والشدة:

﴿ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[3].

ولهذا استحقوا أن يكونوا قادة الأنبياء، وسادة الرسل، وأن يحملوا اللواء في سبيل عزَّة الإنسانية، وانتشالها من براثن الشرك والضلال، إلى نور التوحيد والإيمان.

* * *

(١) سورة العنكبوت: الآية (١٤).
(٢) سورة الأنبياء: الآيتان (٦٩ ــ ٧٠).
(٣) سورة آل عمران: الآية (١٤٦).

محمد سيد الأنبياء والمرسلين

ـ ٦ ـ

وأفضل الرسل إنما هو صفوة الخلق، وخاتم النبيين سيدنا محمد ﷺ، فهو آخر الأنبياء في البعثة، وأفضلهم في المنزلة والرتبة. . كما أن القرآن آخر الكتب السماوية وهو أشرفها وأفضلها، فقد ختم الله تعالى بمحمد ﷺ النبوة، كما ختم بالقرآن الكريم الوحي، فكان ختام المسك، وواسطة العقد، قال تعالى:

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾[1].

ومما يدل على أن محمداً ﷺ سيد الرسل وأفضل الأنبياء والمرسلين، أنه لم يبعث نبي قطُّ إلا وقد أخذ الله تعالى عليه العهد والميثاق إنْ أدرك محمداً في حياته ليؤمنن به، وليكونن من أنصاره وأتباعه فهذا من أعظم الشواهد على جليل قدره، وعظيم فضله ﷺ، وفي ذلك يقول المولى عز وجل:

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ[2] ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ[3] وَحِكْمَةٍ ثُمَّ

---

(١) سورة الأحزاب: الآية (٤٠).

(٢) ميثاق النبيين: الميثاق: العهد المؤكد بيمينٍ ونحوه.

(٣) لما آتيتكم من كتاب: أي بسبب نعمتي عليكم بالنبوة والوحي.

جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ(١) قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾(٢).

ولقد قال صلوات الله وسلامه عليه مبيّناً علو المنزلة التي أعطاه الله إياها بالسيادة في الدنيا والآخرة:

«أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي، آدم فمن سواه، إلا تحت لوائي ولا فخر، وأنا أول شافع وأول مشفع، وأنا أول من يحرك حلق الجنة، فيدخلنيها الله ومعي فقراء المؤمنين ولا فخر، وأنا أكرم الأولين على ربي ولا فخر. . .»(٣).

وأشار العلامة (القاضي عياض) في كتابه «الشفا» إلى منزع لطيف من القرآن الكريم في أفضلية الرسول ﷺ على سائر الرسل الكرام، وبيان أنه أشرفهم وأفضلهم. وذلك لأن الله تعالى قد خاطب الرسل وناداهم بأسمائهم فقال عز من قائل في شأن إبراهيم عليه السلام:

﴿ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾(٤).

وقال في حق نوح عليه السلام:

﴿يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ . . . ﴾(٥).

---

(١) إصري: أي عهدي، فقد أخذ الله العهد على جميع الأنبياء أنهم إن أدركوا زمان محمد ﷺ أن يؤمنوا به وينصروه، وينضووا تحت لوائه، ويصبحوا من أتباعه ﷺ، وما أعظمه من شرف!!.

(٢) سورة آل عمران: الآية (٨١).

(٣) الحديث رواه الترمذي في المناقب برقم: ٣٦١٨، وقال: حديث حسن.

(٤) سورة الصافّات: الآية (١٠٥).

(٥) سورة هود: الآية (٤٨).

وقال في نداء موسى عليه السلام:

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[1].

وقال مخاطباً عيسى بن مريم عليه السلام:

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ . . .﴾ الآية[2].

وهكذا بقية الأنبياء صلوات الله عليهم ناداهم بأسمائهم التي سموا بها إلا خاتم الرسل ﷺ فقد خاطبه الله تعالى بوصف النبوة أو الرسالة، إظهاراً لعظيم قدره، وجلال فضله، فقال عز من قائل

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾[3].

وقال تبارك وتعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[4].

وقال جلت حكمته:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[5].

وقال جل شأنه:

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٤٤).
(٢) سورة المائدة: الآية (١١٦).
(٢) سورة الأحزاب: الآية (٤٥).
(٣) سورة الأنفال: الآية (٦٤).
(٤) سورة المائدة: الآية (٦٧).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ . . .﴾[1] الآية.

ولا نجد في كتاب الله عز وجل آية فيها خطاب للنبي ﷺ باسمه الصريح، مثل ما جاء في خطاب الأنبياء، وإنما كل الآيات الكريمة تخاطبه بلفظ النبوة وليس في الآيات الكريمة آية واحدة تقول: يا محمد.. وهذا من ألطف الإشارات إلى عظيم قدره ﷺ، وإلى أنه أفضل الرسل على الإطلاق[2].

فصلوات ربي وسلامه على صفوة الخلق، المبعوث رحمة للعالمين، الذي خصه الله تبارك وتعالى بالشرف العظيم الذي لا يدانيه فيه أحد، وجعله سيد الأولين والآخرين، ولقد أحسن من قال:

«محمد صفوة الباري ورحمته ... وخِيرَةُ اللَّهِ من عُرْبٍ ومن عَجَم

وقال شاعر طيبة:

وأرَادَ رَبُّكَ أن يُجَلِّي رحمةً ... في الكونِ فاختارَ النَّبِيَّ محمدا
قد زَيَّنته شمائلٌ مَحمودةٌ ... فَغَدَا على كُلِّ العوالِمِ سَيِّدا

* * *

(١) سورة المائدة: الآية (٤١).
(٢) انظر كتاب الشفا بحقوق المصطفى ﷺ للإمام القاضي عياض.

هل يجوز التفضيل بين الأنبياء ؟

ـ ٧ ـ

وقد يقول قائل: كيف تفضلون بين الأنبياء والرسل، وقد قال القرآن الكريم: ﴿لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ. . .﴾؟؟.

والجواب: أن المراد في الآية الكريمة من التفريق بين الرسل هو أن يؤمن الإنسان ببعض الرسل ويكفر ببعض، كما فعل أهل الكتاب (اليهود والنصارى) حيث آمنوا برسالة بعض الأنبياء وكفروا برسالة الآخرين، ففرقوا بين الرسل، وقد وضح الله سبحانه وتعالى هذا المعنى في آيات كثيرة منها قوله تبارك وتعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ، وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ، وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾[1].

وليس المراد من التفريق (التفضيل) بين الرسل، بدليل أن الله تعالى قد فضَّل بعضهم على بعض بصريح القرآن فقال عز من قائل:

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ. . .﴾[2] الآية.

---

(١) سورة النساء: الآيتان (١٥٠ ـ ١٥١).

(٢) سورة البقرة: الآية (٢٥٣).

وقال تعالى:

﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾[1].

فهذا المراد من الآية الكريمة وقد أوضحته الآيات الأخرى، كما أوضحه بيان الرسول ﷺ حيث قال كما في صحيح مسلم:

«والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، يهودي ولا نصراني، ثم يموتُ ولم يؤمن بالذي أُرسلتُ به، إلاَّ أدخلهُ اللَّهُ النَّارَ»[2].

بعثة الأنبياء:

من رحمة الله تبارك وتعالى بعباده.. ومن جميل لطفه بهم وإحسانه إليهم.. أن بعث إليهم الأنبياء والمرسلين مبشرين ومنذرين، ليكونوا منارات للهدى. وأعلاماً للفضيلة، ونجوماً زاهرة في سماء الإنسانية، تضيء للعالم طريق الخير، وترشدهم إلى السعادة، وتنقذهم من براثن الشرك والوثنية، وتسمو بهم إلى مدارج العز والكمال.

وقد جرت سُنة الله في خلقه ألاّ يعاقب أمة قبل أن يبعث إليها رسولاً، يدعوها إلى البر والخير، وينهاها عن السوء والشر، وذلك حتى لا يدع لأحدٍ من البشر عذراً، ﴿وما كنا معذِّبين حتى نبعثَ رسولاً﴾ ولئلا يقول الناس يوم القيامة ﴿ما جاءنا من بشير ولا نذير﴾ أو يتخذوا منها ذريعة لعدم الإيمان، أو حجة على الله تعالى في عدم استحقاقهم للعذاب:

﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾[3].

* * *

(١) سورة الإسراء: الآية (٥٥).
(٢) انظر: صحيح الإمام مسلم ١/١٣٤.
(٣) سورة طه: الآية (١٣٤).

لماذا كان الأنبياء بشرًا ؟

ـ ٨ ـ

لما كان الغرض من بعثة الأنبياء الكرام، عليهم أفضل الصلاة والسلام، أن يكونوا سفراء بين الله تبارك وتعالى وبين عباده، حتى يبلغوا الناس أوامر الله تعالى ونواهيه، ويرشدوا الخلق إلى ما يحبه الباري جل وعلا وما يبغضه، ويكونوا قدوة للبشر في سلوكهم وأخلاقهم وتصرفاتهم.. ولمّا كان لا بد في الوسيط (السفير) أن يكون ممن يمكن الاجتماع به والأخذ عنه.. لذلك بعث الله تبارك وتعالى الرسل من البشر، ليبلِّغوا أوامر الله، ويدعوا الناس إلى سعادة الدنيا والآخرة.

ولو كان الرسل من (الملائكة) لما استطاع البشر أن يأخذوا عنهم أو يجتمعوا بهم.. ولكان للناس حجة في عدم الاتباع للرسل وهو أن يقولوا: هؤلاء الذين بعثهم الله إلينا، وأمرنا باتباعهم ليسوا من جنسنا.. ليسوا بشراً إنما هم (ملائكة) وطبيعتنا تختلف عن طبيعتهم، فهم أسمى منا خلُقاً، وأطهر منا عملاً، وأكرم مقاماً.. لأن الملائكة الأطهار كما أخبر عنهم رب العزة جل وعلا:

﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[1].

وأنهم دائماً في عبادة لا ينقطعون عنها أبداً:

---

(١) سورة التحريم: الآية (٦).

﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾[1].

ثم إن الملائكة لا يأكلون ولا يشربون، وليس فيهم شهوة أو ميل إلى المعصية، لأنهم عباد مكرمون. ومن ناحية أخرى لو كان الرسول الذي يبعث إلى الخلق (مَلَكاً) لما استطاع البشر أن يأخذوا عنه، أو يجتمعوا به، لأنه إن جاءهم بصورة (ملَكية) فزعوا وصعقوا وولوا الأدبار هرباً وفزعاً منه، لأنهم لم يعهدوا مثل هذه الصورة ولم يروا مثل هذا الخلق العظيم.

روى أن النبي ﷺ رجع في بعض أيامه من غار حراء فسمع صوتاً فنظر أمامه فوجد (جبريل) عليه السلام قد جلس على كرسي وقد ملأ ما بين السماء والأرض، ففزع وارتعد، ورجع إلى بيته وهو يقول: دثروني دثروني.. كما رآه مرة أخرى وقد بسط جناحيه فسدّ ما بين المشرق والمغرب. ولو جاءهم بصورة بشرية ـ أي تمثَّل لهم الملك بصورة إنسان ـ لشكّوا في أمره، والتبس عليهم الحال، هل هو ملك أم هو بشر؟.

وقد ذكر القرآن الكريم هذا المعنى في معرض الرد على المشركين، حين طلبوا أن يكون النبي المرسل من الملائكة لا من البشر:

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ[2] أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ[3] وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا[4] عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾.

ومعنى الآية الكريمة: لو جعلنا النبي ملَكاً كما اقترحوا لجعلناه في صورة رجل من البشر، ليمكن اجتماعهم به وأخذهم عنه، وحينئذ يلتبس عليهم الأمر،

---

(١) سورة الأنبياء: الآية (٢٠).

(٢) لولا: (لولا) هنا بمعنى هلاَّ فهي للتحضيض، وليست حرف امتناع لوجود.

(٣) لا يُنْظَرون: أي لا يُؤَخَّرون، ولا يُمْهلون.

(٤) وَلَلبسنا: اللبس: الخلطُ، يقال لَبَسْتُ عليه الأمر ألبسه لَبْساً أي خلطته، والآية من سورة الأنعام: الآية (٩).

هل هو ملك أم بشر؟ فيشكُّون في أمره، ويعودون إلى سيرتهم الأولى في طلبهم أن يكون النبي من الملائكة.

قال العلّامة القرطبي في تفسيره الجامع لأحكام القرآن ٢/٣٩٤: قوله تعالى ﴿ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً﴾ أي: إنهم لا يستطيعون أن يروا الملك في صورته إلا بعد التجسم بالأجسام الكثيفة، لأن كل جنس يألف بجنسه، وينفر من غير جنسه، فلو جعل الله تعالى الرسول إلى البشر (ملكاً) لنفروا من مقابلته، ولما أنسوا به، ولداخلهم من الرعب من كلامه والالتقاء له ما يكفُّهم عن كلامه، ويمنعهم عن سؤاله، فلا تعمُّ المصلحة، ولو نقله عن صورة الملائكة إلى مثل صورتهم ليأنسوا به، ويسكنوا إليه، لقالوا: لست ملكاً وإنما أنت بشر فلا نؤمن بك، وعادوا إلى مثل حالهم، حيث كانوا يقولون عن محمد ﷺ إنه بشر، وليس بينه وبينهم فرق، فيلبسون على الناس بهذا ويشككونهم، فأعلمهم الله عز وجل أنه لو أنزل ملكاً في صورة رجل لوجدوا سبيلاً إلى اللبس (الشك) كما يفعلون[1].

وقد ذكر تبارك وتعالى في آية كريمة أخرى الحكمة من كون النبي من البشر، لا من الملائكة، وذلك أن المرسل ينبغي أن يكون من جنس المرسل إليهم.. فلو كان الذين يسكنون الأرض من الملائكة لبعث الله تعالى إليهم نبياً (مَلَكاً) كما قال تعالى:

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ۝ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾[2].

---

(١) انظر تفسير القرطبي ٢/٣٩٤.

(٢) سورة الإسراء: الآيتان (٩٤ ـ ٩٥).

اعتراض المشركين:

ولقد اعترض المشركون على بعثة محمد بن عبد الله صلوات الله عليه، كيف يكون من البشر وهو يدعي النبوة؟ قالوا: إنه بشر مثلهم يأكل، ويشرب، وينام، ويمشي في الأسواق!! واتخذوا من ذلك ذريعة لتكذيبه والطعن في رسالته.. وطلبوا أن يكون معه من الملك، والجاه، والسلطان ما يؤهله للنبوة: المال الوفير، والكنوز العظيمة، والحدائق الغنّاء، ومن كل زهرة الدنيا مما يكون عادة للملوك والعظماء.. ثم لما رأوه فقيراً يتيماً، استبعدوا ذلك على الله ــ جلَّ وعلا ــ فأنكروا رسالته، وقالوا: إنه ساحر يسحر الناس بحلاوة لسانه، وطيب كلامه، وما جاء به ما هو إلا من أساطير الأولين، اقرأ قوله تعالى في سورة الفرقان:

﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾[1].

وهكذا نجد منطق الشرك والضلال، في كل عصر وزمان، منطقاً واحداً لا يكاد يتغير.. فما بعث الله نبياً إلا وقف المشركون في وجهه وقفة (استكبار وعناد) يتساءلون: إنه بشر مثلنا؟ يأكل كما نأكل، ويشرب كما نشرب، وينام كما ننام!! لماذا لا يكون من الملائكة؟ لماذا لا يكون من الأشراف العظماء، من أهل الثروة والغنى والسلطان؟ استمع إلى موقف الجحود والعناد في قصة نوح عليه السلام:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ

---

(١) سورة الفرقان: الآيات (٧ ــ ١١).

﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ (١).

واستمع إلى موقف (عاد) مع نبي الله الكريم (هود):

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴾ (٢).

واستمع أيضاً إلى موقف (الطغيان) يُمثِّله فرعون الأثيم مع زبانيته في وجه النبيَّين الكريمين (موسى وهارون) عليهما الصلاة والسلام:

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴾ (٣).

ثم انظر إلى موقف كفار قريش من دعوة سيد الرسل محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين:

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ (٤).

---

(١) سورة المؤمنون: الآيات (٢٣ ــ ٢٥).
(٢) سورة المؤمنون: الآيات (٣٣ ــ ٣٦).
(٣) سورة المؤمنون: الآيات (٤٥ ــ ٤٨).
(٤) سورة الفرقان: الآيتان (٤١ ــ ٤٢).

إنه موقف واحد لا يكاد يتغير.. موقف أملاه عليهم الطغيان، والعناد، والاستكبار.. وكأنهم عموا أو تعاموا عن حكمة الله الأزلية، في أن يكون النبي المرسل إلى الخلق، من البشر لا من الملائكة وصدق الله حيث يقول:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

* * *

(١) سورة النحل: الآية (٤٣).

مهمة الرسل الكرام

ـ ٩ ـ

لما كان العقل البشري وحده لا يكفي للتفريق بين الخير والشر، وكانت هناك بعض الأمور الغيبية العظيمة، التي لا يمكن للإنسان معرفتها إلا عن طريق الوحي وعن طريق الشرع، كالإيمان بالله تعالى: وبصفاته العلية، والإيمان بالملائكة وبالبعث والنشور إلى غير ذلك من الأمور الغيبية. لذلك فقد اقتضت حكمة الباري جل وعلا أن يبعث إلى الخلائق الأنبياء الكرام، ليقطع على البشر معاذيرهم، ولئلا يبقى لإنسان حجة عند الله يوم القيامة، كما قال سبحانه:

﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾[1].

وليكون هؤلاء الرسل قُدوة للناس، يتأسَّون بهم في أقوالهم وأفعالهم، وسجاياهم الحميدة.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[2].

ولا بدَّ للإنسان كي يسلك الطريق المستقيم، من داع يدعوه إلى الخير، ومرشدٍ يرشده إلى نور الهداية والعرفان، ولهذا بعث الله الرسل، ليكونوا منارات للهدى، وأعلاماً للفضيلة، ولينشروا النور والضياء في أرجاء المعمورة، ولهؤلاء الرسل وظائف جليلة، ومهمات جسيمة، نذكرها في الآتي مع شيء من التفصيل والبيان.

---

(١) سورة النساء: الآية (١٦٥).
(٢) سورة الأنعام: الآية (٩٠).

وظائف الرسل صلوات الله عليهم

ـ ١٠ ـ

أولاً: دعوة الخلق إلى عبادة الله الواحد القهار. وهذه ـ في الحقيقة ـ هي الوظيفة الأساسية، بل هي المهمة الكبرى التي بُعِثَ من أجلها الرسل الكرام وهي تعريف الخلق بالخالق ـ جل وعلا ـ والإيمان بوحدانيته، وتخصيص العبادة له دون سواه، كما قال جل ثناؤه:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ . . . ﴾[2] الآية.

ثانياً: تبليغ أوامر الله عز وجل ونواهيه إلى البشر، فالأوامر الإلهية لا بد لها من مُبلِّغ، ولا بد أن يكون هذا المبلِّغ من البشر ليمكن الأخذ عنه، ولهذا فقد اختار الله عز وجل الرسل من البشر، للحكمة السابقة التي ذكرناها، وقد أدى الرسل الكرام هذه الوظيفة على أكمل الوجوه، فلم يتأخر واحد منهم عن تبليغ دعوة الله، وفيهم يقول القرآن الكريم:

---

(١) سورة الأنبياء: الآية (٢٥).

(٢) سورة النحل: الآية (٣٦).

﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾[1].

وقد جعل الله تعالى علامة الرسول (تبليغ الرسالة) وخاطب سيد الأنبياء بقوله عز من قائل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[2].

ثالثاً: هداية الناس وإرشادهم إلى الصراط المستقيم.

وهذه الوظيفة مهمة كل رسول كما قال تعالى في شأن موسى عليه السلام:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[3].

وكما قال في شأن خاتم الرسل عليه السلام:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾[4].

رابعاً: ليكون الرسل قدوة حسنة، وأسوة صالحة للبشر. فالرسل الكرام عليهم من الله أفضل الصلاة والتسليم، هم القدوة الحسنة والأسوة الصالحة لجميع البشر، وقد أمرنا الله عز وجل بالاقتداء بهم، والسير على منهاجهم، وجعلهم نماذج

---

(١) سورة الأحزاب: الآية (٣٩).
(٢) سورة المائدة: الآية (٦٧).
(٣) سورة إبراهيم: الآية (٥).
(٤) سورة الأحزاب: الآيتان (٤٥ ـ ٤٦).

للكمال، وعنواناً للفضل لأنهم أكمل الناس عقلاً وأطهرهم سلوكاً، وأشرفهم رتبة ومنزلة، قال تعالى:

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ . . . ﴾[2] الآية.

خامساً: التذكير بالنشأة والمصير، وتعريف الناس بما بعد الموت من شدائد وأهوال، وإلى ذلك تشير الآيات البينات.

قال الله تعالى:

﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴾[3].

سادساً: تحويل اهتمام الناس من الحياة الفانية إلى الحياة الباقية.

فلقد بعث الله الرسل الكرام ليحولوا أنظار البشر من هذه الحياة الزائلة إلى تلك الحياة الباقية الخالدة وهي (الدار الآخرة) كما قال تعالى:

﴿ وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾[4].

---

(١) سورة الأحزاب: الآية (٢١).
(٢) سورة الأنعام: الآية (٩٠).
(٣) سورة الأنعام: الآيتان (١٣٠ ـ ١٣١).
(٤) سورة العنكبوت: الآية (٦٤).

وكما قال جل ثناؤه:

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ...﴾[1] الآية.

سابعاً: وأخيراً لئلا يبقى لإنسان حجة عند الله، كما قال تعالى:

﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾[2].

أي بعثهم بالبشارة والإنذار، ليقطع على الناس معاذيرهم، حتى لا يقول أحدٌ من الخلق، لو أن الله أرسل إليَّ رسولاً لآمنت وأطعتُ، كما نبَّه تعالى في سورة طه بقوله تقدَّست أسماؤه:

﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى ﴿١٣٤﴾﴾[3]؟!

هذه أهم وظائف الرسل الكرام عليهم من الله أفضل الصلاة والسلام ذكرناها بإيجاز والله الموفق والهادي إلى سوء السبيل.

• • •

(١) سورة الحديد: الآية (٢٠).
(٢) سورة النساء: الآية (١٦٥).
(٣) سورة طه: الآية (١٣٤).